٤ ـ المجنـــون

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وضاق « نابغةُ القرن العشرين » بحُمق المجنون الآخر ؛ ورآه داهية دَوَاهٍ كلما تعاقل أو تحاذق لم يأتِ له ذلك إلا بأن يكشفَ عن جنونه هو ؛ فلا يبرَحُ يُجرِّعُه الغيظَ مرةً بعد مرة ، ولا يزال كأنه يسبُّه في عقله ؛ فأراد أن يحتالَ لصرفه عن المجلس ، فدفع اليه الرسالة التي جاء بها (البريد المستعجل) ، وقال له : خذ هذه فاذهب فألقِها في دار البريد ، فسيجيء بها الساعي مرة أخرى ، ثم تذهب الثانية فتلقيها ، ويعود هو فيجيء بها ، وتكونُ أنت تذهب ويكون هو يجيء فتضحك منه ويضحكون . . . . . .

قال س . ع : ولكن كم يذهب هذا وكم يجيءُ ذاك ؟

فغمزه (النابغة) بعينه أن اسكت ؛ فتغافل س . ع . وقال : كم تريد أن يجيءَ الساعي ليهتف بنابغة القرن العشرين ؟

قال المجنون الآخر : هذا هو الرأي ، فلست قائماً حتى أعرف كم مرةً أذهب ، فان الساعي لا يجيءُ إلا راكباً ، وأنا لا أذهب إلا راجلا ، وإن لي رجلي انسانٍ لا رجلي دابة

قال (النابغة) : سبحان الله ! يقليل من الجنون يخرجُ من الانسان مجنونٌ كامل مُستَلَبُ العقل . بَيْدَ أنه لا يأتي النابغةُ إلا من كثيرٍ وكثير ، ومن النبوغ كله بجميع وسائله وأسبابه على تمدُّدها وتفرُّقها وصعوبة اجتماعها لانسان واحد (كنابغة القرن العشرين) . فهو الذي توافتْ اليه كلُّ هذه الأسباب ، وتوازنت فيه كل تلك الخلال . إنه ليس الشأنُ في العلم ولا في التعليم ؛ ولكنما الشأنُ في الموهبة التي تبدع الابتكار كموهبة (نابغة القرن العشرين) ؛ فيها تحيا أعماله منسجمةً دالة بنفسها على نفسها ؛ ومتميزة مع كونها منسجمة دالة بنفسها على نفسها ؛ ومتلائمة مع كونها متميزة دالة بنفسها على نفسها .. هذا س . ع . كان الأولَ بين خرِّيجي مدرسة دار العلوم ، مدرسة الأدب والعربية والمنطق والتحذلق وبلاغة اللسان وصحة النظر ، وهو يعرف أن الكتاب يُلقى في البريد وعليه طابعٌ واحد ، فيصل الى غايته بهذا الطابع ؛ ثم يرى بعيني رأسه أربعة طوابع على هذه الرسالة المعنونة باسم (نابغة القرن العشرين) فلا يدرك بعقله أن معنى ذلك أن من حق هذه الرسالة أن تصل الىَّ أما أربع مرات .. ..

فطرب المجنون الآخر واهتزَّ في مجلسه ، وصفَّق بيديه ، وقال : « مما حفظناه » هذا الحديث : يحاسِبُ اللهُ الناس على قدر عقولهم ؛ فلا تؤاخذ س . ع . فان مدرسة دار العلوم تعلمهم « فيها قولان » ، وفيها ثلاثة أقوال ، وفيها أربعة أوجه ؛ ولكنها لا تعلمهم فيها أربعة طوابع .. ..

ثم التفت الى س . ع . وقال له : لا عليك ، فأنا صاحبُه وخَليطُه وحاملُ عِلمه وراويةُ أدبه وأكبر دُعاتِه وثقاته ، وما علمتُ هذه الحكمة منه إلا في هذه الساعة

قال ا . ش : فاذا كان هذا ، فان لقائلٍ أن يقول : لماذا لم يضع على كتابه عشرة من الطوابع فيجيءُ به الساعي عشر مرات

قال (النابغة) : وهذا أيضاً . . .

وما شرُّ الثلاثةِ أمَّ عمرٍو بصاحبك الذي لا تصحبين ؛ إن الشمعة في يد العاقل تكون للضوء فقط ، ولكنها في يد المجنون للضوء ولاحراق أصابعه ... كم الساعة الآن ؟

قلنا : هي التاسعة

قال : ومتى ينصرف أهل هذا الندي ؟

قلنا : لتمام الثانية عشرة

قال : فاذا كان الساعي يتردد في كل ساعة مرة ، فهي أربعُ مرات إلى أن ينفضَّ المجتمعون هنا ، وبين ذلك ما يكون قد ذهب قومٌ عرفوا (نابغة القرن العشرين) ، وجاء قوم غيرهم فيعرفونه . وأما بعد ذلك فلا يجد الساعي هنا أحداً ، فلا تكون فائدة من مجيئه

فصفَّق المجنون الآخر وقال : هذا وأبيك هو التهدِّي إلى وجه الرأي وسداده ، وهذا هو الكلامُ الرصينُ الذي يقوم على أصول الحساب والجغرافيا . . . « ومما حفظناه » هذا الحديث : لا مالَ أعودُ من العقل . فأربعة طوابع ، لأربع مرات ، في أربع ساعات ، وما عدا ذلك فاسرافٌ وتبذير ، ولا مال أعودُ من العقل . . .

* * *

ورضى (النابغة) عن صاحبه وقال له : لئن كانت فيك ضَغْفَةٌ إن فيك لبقيةً تعقل بها . . . ثم أخذ منه الرسالة ودسّها فى ثوبه . قلنا : ولكن ألا تفضّها لنعرف ما فيها ؟

فضحك وقال : أنتن جاريتكم فى باب المطايبة والنادرة ، وجاريتُ هذا الأبلهَ فى باب جنونه وحمقه — تحسبون أن الأمر على ذلك ، وأن الرسالة فارغةٌ إلا من عنوانها ، وأن نابغة القرن العشرين هو أرسلها إلى نابغة القرن العشرين كما قال سعد باشا : (جورج الخامس يفاوضُ جورج الخامس) . . . ؟ لحقٌّ والله أن العقل الكبير الذى يأبى الصغائر هو الذى تأتى منه الصغائر أحياناً لتثبت أنه عقل كبير ، وهكذا تسخر الحقيقة من كبار العقول (كنابغة القرن العشرين)

فغضب المجنون الآخر وهمّ أن يتكلم . فقال له (النابغة) : أنت كاذبٌ فيما ستقوله

قلنا : ولكنه لم يقل شيئاً بعد ، فكما يجوز أن يكون كاذباً يجوز أن يكون صادقاً

قال : وسيخطىء فى رأيه الذى يبديه

قلنا : ولم يبد شيئاً من رأيه

قال : ولا يعرف الحقيقة التى سيتكلم عنها

قلنا : ويحك أدخلت فى عقل الرجل أم تعلم الغيب ؟

قال : لا هذا ولا ذاك ولكنه قياسٌ منطقىٌّ يتوهّم اطرادُه . إنه سيقول إنى مجنون . . .

فأخرج الآخر لسانه . . . قال (النابغة) : تباً لك لقد رأيتُ الكلمةَ فى لسانك كأنها مكتوبة بحروف المطبعة . ويحك يا سرْقان [1] ألا تعرف أن لك دماغاً مخروقاً تسقط منه أفكارك قبل أن تتكلم بها ، ولولا أنه مخروقٌ لحفظت المتن ! إن كل تخطئةٍ لى منك هى اعترافٌ لى منك بصواب

فنظر اليه الآخر نظرةً كان تفسيرها فى حواجبه إذ مطّ حواجبه [2] ورقّصها . فقال (النابغة) : ونظراتُه خبيثةٌ ، ملْحةُ الطعم ، مزعوقةٌ كماء البحر للمرّ ، أخذ من البحر وأضيف إلى ملحه الطبيعى ملح . أكادُ أسمّعُ من هذه النظرة فأتى الآن فهمتُ معنى قولهم : « ملحةٌ فى عين الحسود » فان الملح لا يغلبه إلا الملح ، كالحديد بالحديد يُفلَجُ . هاتوا كأساً من معتقة الخمر ثم لينظرْ فيها الخبيث هذه النظرةَ فان الخمر لابد مستحيلةٌ شربة ملح انجليزى . . . هذا الأبله ثقيل الدم كأن دمه مأخوذ من مستنقع . . . أهذا الذى لا يستطيع أن يقول لشىء فى الدنيا : هو لى ، إلا الفقر والجنون والخرافة — يكذّب ما فى الرسالة التى جاء بها البريد المستعجل ولا يصدق أنها مرسلة إلى نابغة القرن العشرين من صاحب السمو الأمير ؟

هذا الذاهب العقل هو كالجبان المتقطع فى وحشة القفر فى ظلام الليل ، إذا توجّس حركةً ضعيفة انقلبت فى وهمه قصةَ جريمةٍ ملؤها الرعب وفيها القتل والذبح . ولهذا يخشى ما فى الرسالة التى جاءت من صديق صاحب السمو . هؤلاء اقرأوا الرسالة

وفضضنا الغلاف فاذا ورقتان مسهورتان بتوقيع أمير معروف إحداها صكٌّ بألف جنيه تُدفع (لنابغة القرن العشرين) ، والثانية أمرٌ بالقبض على المجنون الآخر ... وإرساله الى المارستان

* * *

وذهبتُ أصلح بينهما فقلت : إن فى الحديث الشريف : بينما رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى أصحابه إذ مرّ به رجل ، فقال بعض القوم هذا مجنون . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا مصاب ، إنما المجنونُ المقيم على معصية الله

فقال صاحب المتن : « مما حفظناه » : إنما المجنون المقيم على معصية الله

قلت : وليس فيكما مقيم على معصية الله . . .

قال المجنون : « مما حفظناه » وليس فيكما مقيم على معصية الله

قلت : هذا ليس من الحديث ولكنه من كلامى . قال (النابغة) أنبأتكم أن هذا الأبله يَضلّ فى داره كما يضلّ الاعرابى فى الصحراء ؛ وأن الأسطول الانجليزى لو استقرّ فى ساقية يدور فيها ثور ، لكان ذلك أقرب الى التصديق من استقرار العقل فى رأس هذا الأبله ؟

فاحتدّ الآخر وهمّ أن يقول « مما حفظناه » ولكنى أسكتّه وقلت (للنابغة) : إنك دائماً فى ذروة العالم فلا غَرْو أن ترى المحيطَ الأعظم ساقية . والنوابغ هم فى أنفسهم نوابغ ، ولكنهم فى رأى الناس مرضىَ بمرض الصعود الخيالىّ إلى ذروة

(١) المرقسان والرقم الأحمق الذى يتمزق عليه رأيه فلا يجتمع له

(٢) هما حاجبان ولكن هذا الأسلوب هو الأفصح هنا وهو كثير فى العربية

العالم . ومن هذا يكون المجانين هم المرضى بمرض النزول الحقيق إلى حضيض الآدمية . فهناك يعملون فتكون أفكارهم من أعمالهم، ثم تكون عقولهم من أفكارهم ، فيكون هـــذا هو الجنون فى عقولهم . وذلك معنى الحديث : إنما المجنون المقيم على معصية الله

قال (النابغة) : لَعَمرى إن هذا هو الحق . فنبوغُ العقل مرضٌ من أمراض السموّ فيه ؛ فالشاعر العظيم مجنون بالكون الذى يتخيّله فى فكره ، والعاشق مجنون بكون آخر له عينان مكحولتان ؛ والفيلسوف مجنون بالكون الذى يدأب فى معرفته ؛ ونابغة القرن العشرين مجنون ... لا . لا . قد نسينا ا . ش فهو مجنون و س . ع فهو مجنون

وكلُّ الناس مجنونٌ بليلى وليلى لا تُقـرُّ لهم بذا كا

ومن حقّ ليـلى ألا تقر لهم إذ هى لا تقر إلا لنابغة القرن العشرين وحده . وما أعجبَ سحرَ المرأة فى الكون النفسانىّ للرجال ؛ أما فى الكون الحقيق فهى أنثى كأنات البهائم ليس غير . وأعقلُ الرجال من كان كالحمار أو الثور أو غيرها من ذكور البهائم . فالحمار لا يعرف الحمارة إلا أنها حمارة ، والثور لا يعرف البقرة إلا أنها بقرة ؛ ولا ينظمون شعراً ولا يكتبون « أوراق الورد » .. ... وإناث البهائم أمّاتٌ (١) لا غير ، ولكن العجيب أن ذكورتها ليست آباءً ؛ فهذه الذكورة طفيليةٌ فى الدنيا ، والطفيليُّ لا يأكل إلا بحيلة يحتال بها فيكون صاحب نوادر وأضاحيك وأكاذيب . ولهذا كان عشق الرجال للنساء ضُروبا من الخداع والأكاذيب والأضاحيك والحيـل والغفلة واليلاهة . وإذا نظرنا اليه من أوله فهو عشق ، أما آخره فهو آخر الحيـلة والأكذوبة ، وهو قول الطفيلى قد شبعتُ وقد رويت ... ويحكم أين أولُ الكلام ؟

قلنا : أوله ما أعجب سحر المرأة فى الكون النفسانى للرجال

قال : نعم هذا هو . إنه سحر لا أعجب منه فى هذا الكون النفسانى إلا سحر الذهب . فلو مُسِخت المرأةُ الجميلة شيئاً من الأشياء لكانت سبيكةً ذهبيةً تلمع . ولهـذا يُوجدُ الذهبُ ألصوصا فى الدنيا ، وتوجد المرأةُ الجميلة لصوصا آخرين ، فيجب أن يصان الذهب وأن تصان المرأة

(١) يقال فى غير العاقل أمات وفى العاقل أمهات

قلت : ولكن أليس من المال فضة وهى توجد اللصوص كالذهب ؟

قال : نعم ، وفى النساء كذلك فضةٌ وفيهن النحاس . ولو أنت ألقيت ريالاً فى الطريق لأحدثتَ معركة يختصم فيها رجلان ثم لا يذهب بالريال إلا الأقوى . ولو تركت قرشاً لتضارب عليه طفلان ثم لا يفوز به إلا من عض الآخر ...

ولكن (فورد) الغنى الأمريكى العظيم الذى يجمع يده على أربعمائة مليون جنيه لا يتكلم عن القرش ؛ (ونابغة القرن العشرين) الذى يملك (ليـلى) لا يتكلم عن غيرها من قروش النساء

قلت : فانى أحسبك أعلمتنى أن اسمها فاطمة لا ليلى

قال : هل يستقيم الشعر إذا قلت : وكل الناس مجنون بفاطمة وفاطم لا تقرُّ لهم ؟ قلت لا .

قال : إذن فهى (ليلى) ليستقيم الشعر ... أما حين أقول : أفاطمُ مهلاً بعد هذا التدلّل ، فهى فاطمة ليصح الوزن

قلت : يُشبه والله ألا يكون اسمها ليلى ولا فاطمة ؛ وإنما هى تسمى حسب الوزن والبحر ، فاسمها فَعُولنْ أو مُفَاعَلَتُنْ ...

* * *

ثم قلنا له : فما رأيك فى الحب ، فانه ليقال : إنك أعشقُ الناس وأغزل الناس ؟ .

قال : إن ذلك ليقال (وهو الأصح) . ثم أطرق يفكر . وبدا عليه أنه مدهوش ذاهب العقل كأنه من قلبه على مسافة أبعد من المسافة التى بينه وبين عقله . وخيّل إلىّ أن النساء قد حُشِرْن جميعاً فى رأسه وصرت كل واحدة تعرض مفاتنها وغَزَلها وتلائم هَدَيانه بهذيان من جمالها ، فهو يرى ويسمع ويَعرض ويَتخيّر . ثم اضطرب كالذى يحاول أن يمسك بشىء أفلت منه ؛ فلم ينتبه إلا قول المجنون الآخر : « مما حفظناه » أن أعرابية سئلت عن العشق فقالت : إنه داء وجنون ...

قال : اسكت يا ويلك لقد أطفأت الأنوار بكلمتك المجنونة . كان فى رأسى مرقص عظيم تسطع الأنوار فيه بين الأحمر والأخضر والأبيض ؛ وترقص فيه الجميلات من الطويلة والقصيرة والممشوقة والبادنة ، فجئتَ بالماء والجنون قبحك الله فأخرجتنى

عنهن اليك . أحسبُ أنك لو انتحرت لصلح العالم أو صلحتُ أنا على الأقل ، فاذا أردت أن تشنق نفسك فأنا آتيك بالحبل الذى كنتُ مقيدا فيه أى الحبل الذى عندى فى الدار ... على أن رأسك الفارغ مشنوقٌ فيك وأنت لا تدرى .

قال الآخر : ما أنت مُنذُ اليوم إلا فى شنق وتعذيبى أو فى شنق عقلى على الأصح . « ومما حفظناه » قول الأحنف بن قيس : إنى لأجالس الأحمق ساعةً فأتبيّنُ ذلك فى عقلى ...

فلم يَرُعْنا إلا قيامُ المجنون مسلّحاً بحذائه فى يده ... وهو حذاء عتيق غليظ يقتل بضربة واحدة ؛ فحلنا بينهما وأثبتناه فى مكانه . وقلنا : هذا رجل قد غُلِب على عقله فلا يدرى مايقول ؛ فاذا هو دل على أنه مجنون ، أفلا تدلّ أنت على أنك عاقل ؟ ما سألناك فى انتحاره وجنونه ، بل سألناك رأيك فى الحب ؛ وما نشك أنك قد أطلتَ التفكير ليكون الجواب دقيقاً ، فانك « نابغة القرن العشرين » ، فانظر أن يكون الجوابُ كذلك

قال : نعم إن العاقل إذا ورد عليه السؤال أطال الفكر فى الجواب . فاكتب يا فلان (س . ع) :

(جلس نابغة القرن العشرين بمجلس الاملاء مرتجلاً فقال[1] : قصةُ الحب هى قصة آدم ، خلق الله المرأة من ضلعه . فأول علامات الحب أن يشعر الرجل بالألم كأن المرأة التى أحبها كسرت له ضلعاً ... وكل قديم فى الحب هو قديم بمعنى غير معقول ، وكل جديد فيه هو جديد بمعنى غير مفهوم ؛ فغيرُ المعقول وغيرُ المفهوم هو الحب

والجمرةُ الحمراءُ إذا قيل إنها انطفأت وبقيت جمرة فذلك أقرب إلى الصدق من بقاء الحب حياً بمعناه الأول إذا انطفأ أو بَرَدَ

والعاشق مجنون . وجنونُه مجنون أيضاً ، فهو كالذى يرى الجمرةَ منطفئةً ويرى مع ذلك أنها لا تزال حمراء ، ثم يُخيَّلُ فى خياله فيراها وردة من الورد ... وإذا سألته أن يصف الجمالَ الذى يهواه كان فى ذلك أيضاً مجنونَ الجنون كالذى يرى قمر السماء أنه قد تفتّت وتناثر ووقع فى الروضة فكان نثارُه هو الياسمينَ الأبيض الجميل الذكى ...

والمجنون يرى الدنيا بجنونه والعاقل يراها بعقله ؛ ولكن العاشق المخبول لا ينظر من سواه إلا ببقية من هذا وبقية من ذلك فلا يخلُصُ مع حبيبه إلى جنون ولا عقل

(والمجهول) إذا أراد أن يظهر فى دماغ بشرىّ لم يسعه إلا أحدُ رأسين : رأسِ المجنون ورأسِ العاشق

ولا صعوبة فى الحكم على شىء بأنه خير أو شر إلا حين يكون الخير والشر امرأة معشوقة . أما أوصاف الشعراء والكتاب للجمال والحب فهى كلها تقليد قد توسعوا فيه ؛ والأصل أن ثوراً أحب بقرة فكان يقول لها : يا نجمة القطب التى نزلت من السماء لتدور فى الساقية كما دارت فى الفلك . . .

قال (النابغة) : هذا رأيى فى حب العاشقين ، أما حبى أنا (نابغة القرن العشرين) فيجمعه قولك : قلّ ، ورد ، زهر . . .

قلنا ما هذه الألغاز ، وهل للحب سِتّون كقولهم : حروفُ القَلْقَلة يجمعها قولك (قُطْبُ جَدٍ) ، وحروف الزيادة يجمعها قولك (سألتمونيها) ؟

فتضاحك (النابغة) وقال : تكاثرت الظباءُ على خِراش ، فلكيلا ننسى ... إن كل حرف هو بدءُ اسم ، الفاء فاطمة ، واللام ليلى ، والواو وردة ، والراء رباب ، والدال دلال ، والزاى زكية ، والهاء هند ، والراء رباب

قلنا : رباب قد مضت فى (ورد) . قال : كنا تهاجرنا مدةً ثم اصطلحنا بعد هند ...

* * *

قلت : هكذا النوابغ فان رجلا أديباً كانت كنيته (أبا العباس) فلما « نبغ » صيّرها (أبا العبير) وفّق له نبوغه أن يجعلها تاريخاً يعرف منها عمره . قالوا فكان يزيد فيها كل سنة حرفاً حتى مات وهى هكذا :

أبو العبر طَرَدْ طِيل ظَليرى بَكْ بَكْ بَكْ

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

---

(١) هذه نص عبارته حين يريد التغليط

الى آنستين : هل تتفضل الآنسة التى كتبت إلى من القاهرة بغير توقع فتتخذ لها عنواناً أخاطبها به . وهل تفعل مثل ذلك الآنسة التى كتبت من دمشق بغير توقيع ؟ إن من الجواب ما لا يكون صريحاً كما يريد السائل إلا إذا كان جواباً للسائل وحده

الرافعى